

يقول ابن جُبوس⁽¹⁾ يمدحه :

بخليفة المهدي سيدنا اغتدي⁽²⁾ نهج العلوم مُعَبِّدًا ومذللًا
وتفجرت عين النباهة بعدما [قد]⁽³⁾ كان خاطرها أَكَلَّ وأَجَبَلًا⁽⁴⁾
قد صير المعقول قلبا ماثلا⁽⁵⁾ فمتى رميناه أَصَبْنَا المقتلا
ورعى جميع العلم في أوطانه من كان يبدي الضعف أن يتنقلا
وافيت حضرته المقدس تربها فإذا الذي أَبْصَرَتْ لن يتخيلا
ووقفت وسط سماطه فوجدته سوقا تقام على المعارف والعلا
لم أَلْقَ إلا عالما وإِزاءه متعلما متكلما متقللا
ومدارسا تسع الرياضة لو رأى سقراط سيرتها لذم الهيكل
وسمعت كل مذاهب الحق التي ما إن ترى عن مقتضاها معدلا

(1) هو أبو عبد الله محمد بن جُبوس الفاسي ، ولد سنة 500 ، وتوفي سنة 570 ، وكان أول من هنا
عبد المؤمن بن علي لدى جبل الفتح (جبل طارق) عند عبوره إلى الأندلس ، وقال عبد الواحد المراكشي
« إن طريقته في الشعر كانت على نحو طريقة ابن هانئ » ، وقد أورد المراكشي وصفون بن إدريس في
« زاد المسافر » من شعره بيتين من بحر الأبيات المثبتة هنا ورويا وقافيتها ، هما :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه أن كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا

ولا نكاد نشك في أن هذين البيتين هما مستهل القصيدة التي اقتطف منها ابن القطان تلك الأبيات .
هذا وقد كان ابن جُبوس حظيا لدى عبد المؤمن ولدى ابنه يوسف أبي يعقوب (انظر في ترجمته وأخباره :
المعجب ص 282 - 283 ؛ ابن الأبار : التكملة ، ترجمة 1055 ؛ صفوان بن إدريس : زاد المسافر ص 1 - 6 ؛
ابن حمادة : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ص 9 - 10 ؛ ابن دحية : المطرب ص 109 ، 199 - 201 ؛
وراجع مقال الأستاذ هنري بيريس عن « الشعر في فاس على عصر المرابطين والموحدين » ، مجلة إسبريس ،
المجلد الثامن عشر سنة 1934 ، ص 17 - 33) .

(2) في الأصل : اعتدى .

(3) زيادة تقتضيها استقامة الوزن .

(4) أى انقطع .

(5) في الأصل : ما تلا .

وبصرت بالطوسي⁽¹⁾ يفهق حوله وأني المعالي⁽²⁾ مجملا ومفصلا
لم أَلْفَ إلا مصقعا أو مفلقا ومجادلا عن دينه ومُرسلا
« والكل في علم الإمام مقصر حسب المبرز منهم أن ليلا⁽³⁾ »
فأترك عكاظا والوفود بسوقها حِرَقًا⁽⁴⁾ وسحبان الخطيب ودغفلا⁽⁵⁾
يعشوا لها الأعشى بنار مُحَلِّقٍ⁽⁶⁾ ويضم علقمة⁽⁷⁾ إليها جَرَوْلًا⁽⁸⁾

(1) يعنى بالطوسي الإمام أبا حامد الغزالي .

(2) يعنى الإمام أبا المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري المعروف بإمام
الحرمين ، ولد سنة 419 وتوفي سنة 478 (انظر في ترجمته ابن خلكان : وفیات الأعيان : 170 - 167/2 ،
والسبكي : طبقات الشافعية 165/5 - 222 والمادة التي كتبها عنه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية
1100/1) ؛ أما إشارة الشاعر هنا إلى الغزالي وإمام الحرمين فلأن كليهما يعتبر من أكبر أئمة الأشعرية التي
كانت مبادتها من أهم الأسس التي أقام عليها ابن تومرت ثورته الدينية السياسية ، وفي ذلك يقول عبد
الواحد المراكشي : « وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه
وافق المعتزلة في نفها وفي مسائل قليلة غيرها » (المعجب ص 255) .

(3) في الأصل : خرقا . ويعنى بالحرق الجماعات .

(4) يشير في هذا الشطر إلى سحبان وائل الخطيب المشهور ، وإلى النسابة دغفل بن حنظلة
السدوسي أو الذهلي ، وكان قد أدرك النبي (صلعم) ولكنه لم يسمع منه شيئا ، وقتله الخوارج الأزارقة
(انظر مجمع الأمثال للميداني - ط. القاهرة سنة 1352 هـ . 308/2 ؛ وابن حجر العسقلاني : الإصابة في
تمييز الصحابة - ط. القاهرة 1252 - 464/1 - 465 ؛ وابن عبد البر : الاستيعاب في أسماء الأصحاب - ط.
هامش الإصابة - 467/1 - 468) .

(5) ورد هذا الشطر في الأصل : « يعيشوا لها الأعشى بنار مخلق » ، والصواب ما أثبتنا ، ويعنى
بالأعشى أعشى قيس الشاعر الجاهلي المعروف وبالخلق سيدا من سادات الجاهلية في مكة ، كان فقيرا خاملا
ذا نبات ، فسبق إلى إكرام الأعشى عند نزوله بمكة واحتفى به كثيرا ، فمدحه الأعشى بقصيدة جعلت
أشراف العرب يتهافون على الزواج من بناته (انظر القصة في ابن رشيقي القيرواني : العمدة 24/1 - 25)
وهو يشير هنا إلى قول الأعشى من قصيدته في مدح المخلوق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمعلق

(6) يعنى الشاعر الجاهلي المعروف علقمة بن عبدة الفحل .

(7) هو الشاعر المخضرم الخطيئة جرول بن أوس العبيسي .

والحق بحضرته السنية واستمع للقول واحذر - ويك - أن تتقولا فيها كمال الدين والدنيا معا وسعادة الأرواح في أن تكملا وأما انبساطه رضي الله تعالى عنه فإنه كان يحدث جلساءه ويفاوضهم ⁽¹⁾ ، كما روى عن بعضهم أنه قال :

كنت بتلمسان أقرأ كتب أصول الدين ، وكان لي صاحب يقرأ كتب الفقه ، فرحل عني من تلمسان يريد المشرق ، فوصل إلى بجاية ، فخاطبني منها يعرفني ويقول لي : قد وصل إلى هذه المدينة فقيه عالم بالعلم الذي تطلبه ، فلتصل إليه ، فعند وصول كتابه إليّ رحلت إلى بجاية ، فلقيت بها الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه ⁽²⁾ .

ومن مكارمه وحسن عهده رضي الله تعالى عنه ما حكى بعضهم أنه رضي الله تعالى عنه لما توجه إلى فتح بجاية وتوسط بقرية كبيرة ، فاستوقف ⁽³⁾ الجند وخب السير منفرداً على فرسه ، حتى وقف على باب دار من ديار القرية ساعة يسائل أهلها ، ثم انصرف ، فلما نزل في قبة المعظمة الميمونة * أمر بإحضار أهل الدار المذكورة ، فسألهم عن أيهم ، فقالوا إنه توفي منذ أعوام وتركهم أربعة بنين ، فأسلمهم ⁽⁴⁾ أرضاً واسعة للحرث ، وأعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر ، وأربعة آلاف دينار ، وكتب لهم ظهيرا بالعز والأمان والإحسان

(1) في الأصل : ويعاوضهم .

(2) عن ابتداء صلة عبد المؤمن بن علي بالمهدي انظر : أخبار المهدي ص 52 - 57 ؛ الحلل الموشية ص 106 - 107 ؛ عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 247 - 248 ؛ روض القرطاس ص 173 ؛ الاستقصا 79/2 - 80 ؛ ابن عذاري : البيان المغرب (قسم الموحدين) ص 80 ؛ صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات 324/3 ؛ وانظر مناقشة أويشي للقاء التاريخي بين رجل الدولة الموحدية وما أحاط به من أساطير (تاريخ الدولة الموحدية 43/1 - 46) ؛ وانظر ما سبق أن ساقه ابن القطان في ص 77 .

(3) في الأصل : فاستوقد .

(4) في الأصل : فأسهم .

وتقدّمهم حكاما على قومهم رضي الله تعالى عنه ⁽¹⁾ .

ومنها أنه كان ساكنا بتينملل أيام الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه ، فأب ⁽²⁾ من سفرة سافرها ، فأهدت له جارة كانت له من نساء الموحدين عنزا ، فقبلها بفضله ، فلما ملكه الله تعالى أعطى المرأة ثوبا وألف دينار ⁽³⁾ .

ومنها أنه رضي الله تعالى عنه أحسين بضعف طلبه مجلسه المكرم من طلبه الحضرة منهم أبو محمد المالقي ⁽⁴⁾ وغيره ، فقال لأشياخ ⁽⁵⁾ الموحدين أعزهم الله تعالى : هؤلاء طلبه غرباء ضعفاء ، والإقلال عليهم ظاهر ، فرى أن ندفع إليهم مالا نقارضهم فيه ، ويتجرون به ويردون السلف لنا ؛ فقالوا ، نعم ، فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد منهم ، فاكسبوا منها ، وكانت أصل غناهم ، ولم يأخذها منهم أبداً .

ومنها أنه رضي الله تعالى عنه تذاكر يوماً حال الأندلس مع الروم المقاتلين ، فجري [ذكر] ⁽⁶⁾ وقعة أقليمش ⁽⁷⁾ التي هزم فيها الطاغية وقتل ولده أذفونش ؛

(1) ذكر هذه القصة بتفاصيل أخرى تختلف عما جاء هنا عبد الواحد في المعجب ص 301 ؛ وكذلك ابن عذاري في البيان المغرب (القسم الموحدي) ص 80 - 81 .

(2) في الأصل : فباب .

(3) أورد هذه القصة أيضا ابن عذاري في البيان المغرب ص 81 .

(4) لعله أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن المالقي ، وهو الذي ولي القضاء لعبد المؤمن بعد وفاة أبي محمد عبد الله بن جبل الوهراني ، وظل على هذا المنصب طوال حكم عبد المؤمن ثم صدر خلافة ابنه يوسف أبي يعقوب (انظر المعجب ص 269 ، 318) ؛ وقد وردت هذه القصة أيضا في البيان المغرب لابن عذاري ص 81 .

(5) في الأصل : الأشياخ .

(6) إضافة يقتضيها السياق .

(7) في الأصل : افليس ، وقد سبق للمؤلف أن فصل الحديث عن هذه الوقعة التي أحرز المرابطون فيها انتصارا عظيما على جيوش ألفونسو السادس ملك قشتالة (انظر ص 63 حاشية رقم 1) .

[52 ب] فقال رضي الله تعالى عنه لوزيره أبي جعفر ابن عطية ⁽¹⁾ : اخرج إلى أشياخ الجند وسلمهم هل بقي أحد ممن حضر وقعة أفليش ⁽²⁾ ؟ ففعل ، فألقى شيخا يقال له عبد الله بن زيدون قال إنه حضرها ، وعمر بن تورزجين من أشياخ لمتونة أيضا حضرها : فعرف ابن عطية بذلك أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه ، فسر بأن بقي من يحدثه بصفة تلك الحروب ، وأمر بإدخالهما إلى مجلسه العالي ، وأمر بأن يحضر معهما أشياخ الجند ، فكان ذلك ؛ وسألهما عما شاهداه من تلك الحروب ، فحكياها ⁽³⁾ من أولها إلى آخرها ؛ وعند تمام حكايتها أعطى لابن زيدون خمسمائة دينار ، ولابن تورزجين مثل ذلك ، وأعطى لأشياخ ⁽⁴⁾ الحاضرين في المجلس لكل واحد مائة دينار ، وكانت هذه الحكاية سببا لنظرة لجزيرة الأندلس وتجهيزه العساكر إليها .

ومن مكارمه العظيمة رضي الله تعالى عنه حضه ⁽⁵⁾ الناس على العلم ، وإرادته لهم ولبنينهم ما يريد لنفسه ولبنيه ، واستدعاه الصبيان الصغار الأسنان من

(1) هو أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي المراكشي ، أصله من قرية بناحية طرطوشة Tortosa بالأندلس ، ولد بمراكش وتولى الكتابة لعلي بن يوسف ولابنه تاشفين سلطاني المرابطين ثم لما انقطعت دولتهم أخفى نفسه مدة حتى استكنبه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بمناسبة قضائه على ثورة الدعي الماسي ببلاد السوس فلما وصلت الرسالة التي كتبها ابن عطية إلى عبد المؤمن استحسنتها وأمر بتقريب أبي جعفر ثم استوزره ، وجرت له بعد ذلك محنة قتل فيها في أواخر سنة 553 (انظر في ترجمته عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 266 - 272 ؛ ابن الأبار : الحلة السيرة 194/2 ، 225 - 226 ، 237 - 238 ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (ط. محب الدين الخطيب) 263/1 - 271 ، الإحاطة (ط. عنان) 271/1 - 279 ؛ ابن عناري : البيان المغرب ص 31 - 32 ، 57 - 60 ؛ المقرئ : نفح الطيب 183/5 - 187 ؛ السلاري : الاستقصا 126/2 - 130 ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص 225 - 229) .

(2) في الأصل : أفليش .

(3) في الأصل : فحكاها .

(4) في الأصل : الأشياخ .

(5) في الأصل : وحضه .

أبناء إشبيلية ⁽¹⁾ وقرطبة وفاس وتلمسان إلى حضرته العلية ليعلمهم ويحفظهم القرآن وحدث النبي ﷺ ، فانتخب الأولاد النجباء « الحفاظ من كل بلد ، ووجهوا ⁽²⁾ مختصاً إليهم مزودين ، فكان عدد الذين توجهوا من إشبيلية ⁽³⁾ خمسين صبيا ، فسافروا نحو الحضرة العلية مع الأستاذ أبي الحسن نجية منجهم والأستاذ أبي بكر الحصار ، نهضوا في كفالتهم حتى وصلوا حضرة مراكش حرسها الله تعالى ، فأنزلوا أكرم إنزال ، وتلقاهم الوزير أبو جعفر ابن عطية مأموراً بذلك ، وقد قبلوا بما أحسنهم من الإحسان والإنعام وإجراء الطرف والتحف ثلاثة أيام ، ثم أمروا بكتب التوحيد وحفظه ، وكتب موطأ الإمام رضي الله تعالى عنه وحفظه ، ومسلم ⁽⁴⁾ وحفظه ، وأقاموا كذلك تحت جراية واسعة ، وجباية بالغة ، وأستاذاهم المذكوران معهم ستة أشهر ، حتى بدا عليهم نور الإمامة ، وتميزوا بالحفظ وامتازوا بالكرامة .

ثم ولي سيدنا ومولانا الخليفة أبا يعقوب ⁽⁵⁾ رضي الله تعالى عنه إشبيلية وقرطبة ، فوجه معه الوزير أبا جعفر ⁽⁶⁾ ابن عطية ، وبعث الصبيان الحفاظ معه إلى آبائهم ، وقد نالوا من الخير ما نالوا وانصرف الأستاذ أبو بكر « الحصار معهم .

(1) انظر تعليقنا المتقدم على ص 149 ، حاشية 2 .

(2) يعني صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشيري .

(3) في الأصل : أبي يعقوب ، وهو يعني يوسف بن عبد المؤمن الذي ولي الخلافة بعد موت أبيه سنة 558 وكانت وفاته سنة 580 ؛ أما ولايته على إشبيلية وقرطبة فقد كانت سنة 551 ويقول ابن عذاري في ذلك : « لما وصل أشياخ إشبيلية إلى الحضرة العلية في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة رغبوا في سيد يرجع معهم إليها ويستندون إليه في مصالحها وصرح ابن الجذ بطلب السيد أبي يعقوب ، فقال لهم عبد المؤمن إنه صغير السن (كان يبلغ حينئذ ثمانية عشر عاما إذ أنه ولد سنة 533) ، فقالوا : بل هو كبير ، فأسعفهم في ذلك وبعثه معهم أميرا » (البيان المغرب - القسم الموحد ص 56) .

(4) في الأصل : أبي جعفر .

کراماتہ رضی اللہ تعالیٰ عنہ :

ومنها ذكره رضى الله تعالى عنه قبل وجوده ، وأعلى ما في ذلك ما ذكره أبو القاسم المؤمن ⁽¹⁾ في كتابه الذي ألفه في « فضائل الإمام المهدي رضى الله تعالى عنه » ، فإنه قال : إن في كتاب أبي عبد الله الملقب بالباقر بن علي زين العابدين ⁽²⁾ بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم مرفوعا إلى النبي ﷺ - الحضر على الإيمان بالمهدي وبطائفته التي تقاتل معه وبعده وهم أنجال الخليفة الآخذ عنه ما وعد الله الخليفة المؤيد بالنصر الذي ينصره ويفتح به وعلى يديه ، المسمى في الخطبة الجامعة عن رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم - عبد المؤمن بن علي القيسي رضى الله تعالى عنه ⁽³⁾ .

قال أبو القاسم المذكور :

وهذا أيضا موجود في كتاب يحيى بن زيد ⁽⁴⁾ ، وفي كتاب القاسم الأكبر ⁽⁵⁾ ؛ وجميع ما ذكر أيضا من فضائل الإمام رضي الله تعالى عنه وعلاماته ومواضعه ورجاله وخدمته والخليفة الآخذ عنه المشار إليه في خبر وجود الخلق وقسمة الطوائف ⁽⁶⁾ * في الأديان وعبدية الهوى « والناصر والمنصور بأمره المسمى

(1) راجع عن هذا المؤلف ما سبق أن كتبناه في ص 62 ، حاشية رقم 4 .

(2) في الأصل : علي بن زين العابدين .

(3) من الواضح أن هذا لا أساس له من الصحة ، وإنما هي أقاويل نسجها المؤرخون الذين كانوا في خدمة الموحدين تقوية لمركزهم .

(4) هو يحيى بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي إمام فرقة الشيعة الزيدية ، وهو الذي أخرج على الوليد بن يزيد مرواني في خراسان ، فتمكن منه يوسف بن عمر والي خراسان وقتله وصلبه ، ثم أحرقه بالنار ، وذلك في سنة 125 . انظر تاريخ الطبري 228/7 - 230 .

(5) لعله القاسم بن إبراهيم العلوي الرسى إمام الزيدية ، وتوفى سنة 246 ، وينسب إليه كتاب « الرد على ابن المقفع » و « رسائل في الإمامة » . (انظر الأعلام للزركلي 171/5) .

(6) في الأصل : الطوائف .

بالرجل المؤمن عبد المؤمن بن علي رضي الله تعالى عنه في خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الكشف عن ضيع النفوس .

وإيضاح البيان في ذلك كله في كتاب « النصر » لإدريس بن إدريس (1)
يسند جميعه إلى رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم .
وقال :

وسمعت أيضا أبا عبد الله اللحمي يقول :

رَأَيْتُ فِي الْخَبَرِ عَنْ خَيْرِ الْبَشَرِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : خَيْرُ الْقُرُونِ
الَّذِي أَنَا فِيهِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، وَالْآخِرُ أَشَقُّ ،
وَلَا يَقُومُ بِالْحَقِّ بَعْدَ الْفَتْرَةِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْخَلْقِ بَعْدَ هَذِهِ الْقُرُونِ إِلَّا الْمَهْدِيُّ ،
وَالرَّجُلُ الْقَائِمُ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ⁽²⁾ .

ومن ذلك تبشير الإمام المهدي رضي الله تعالى عنهما قبل الاجتماع به ودعاؤه ببلقائه ، وقد كتبنا ذلك قبل هذا في هذه المقدمة (3) .

(1) هو إدریس بن إدریس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأبوه إدریس ابن عبد الله هو الذي فر من وقعة فخ بالمشرق والذي أسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، أما إدریس الثاني هذا فقد ولد سنة 177 بعد أن توفي أبوه وأمه حامل به فبايعه أهل المغرب ، وهو الذي بنى مدينة فاس ، وكانت وفاته سنة 213 (انظر السلاوي : الاستقصا 160/1 - 171) ؛ ولسنا نعلم لإدریس هذا كتابا يسمى « النصر » كما يذكر المؤلف هنا .

(2) الذي ورد في صحيح البخاري (91/1) : « خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران : فما أدري قال النبي (صلعم) بعد قوله مرتين أو ثلاثا - ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يفيون ويظهر فيهم السمن » ، وكذلك حديث آخر قريب من هذا : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم أيماهم وأيمانهم شهادتهم » . ولمزل الحديث على الصورة التي جاء بها في النص في واحد من كتب الصحاح .

(3) حول تبشير المهدي بقاء عبد المؤمن ونبئته به انظر القصص الواردة في ذلك في « أخبار المهدي » للبيضاوي ص 53 - 57 و « المعجب » لعبد الواحد ص 247 - 248 ، وقد جمع كل هذه الأقوال وناقشها الأستاذ أويشي في بحثه « الأسطورة والتاريخ في نشأة الدولة الموحدية » ، وهو الذيل الأول من ذيول كتابه « تاريخ الدولة الموحدية » (انظر 587/2 - 588) .

ومن ذلك ذكر ابن عبد ربه القرطبي صاحب « العقد » ⁽¹⁾ له في أرجوزة
[54 ب] نظمها يقول فيها بعد ذكر المهدي رضي الله تعالى عنه * إلى وفاته :

ويرجع الأمر إلى عدنان لماجد قد خص من عيلان
ربّ الفتوح صاحب الملاحم وقامع الأعراب والأعاجم

وجرى في وصف فتوحه طلقاً مديداً .

وذكره ابن الخطاط ⁽²⁾ في أرجوزة له .

(1) يعني كتاب « العقد الفريد » للأديب الأندلسي المشهور أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي المتوفى سنة 328 ، ولم نر في كتاب العقد أية أرجوزة يتحدث فيها عما يذكره المؤلف هنا ، وكل ما جاء في العقد الفريد أرجوزته التي يتحدث فيها عن غزوات عبد الرحمن الناصر والتي انتهى فيها إلى سنة 322 هـ . (انظر العقد - ط القاهرة سنة 1944 - 501/4 - 527) ، هذا ولو أن هناك أرجوزة تنسب لابن عبد ربه سرد فيها تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين ، على أن ابن الأبار يذكر بمناسبة هذه الأرجوزة خيراً عن القاضي منذر ابن سعيد البلوطي يقول فيه إنه كتب بيتي هجاء في ابن عبد ربه لأنه أسقط ذكر علي بن أبي طالب (رضه) من الخلفاء الراشدين (انظر عن ذلك مقالنا « التشيع في الأندلس » - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية سنة 1954 - ص 110 - 111) ، وإذا صح ذلك فما كان أبعد ابن عبد ربه - وكان معروفاً ببغضه للشيعه ومن شابههم - عن أن يتبنأ بظهور خليفة لمهدي غير مقطوع بصحة نسبته إلى علي بن أبي طالب (رضه) ، هذا وقد ردد المؤرخ الموحي صاحب كتاب المقتبس من كتاب الأنساب ما ذكره ابن القطان هنا عن تنبؤ ابن عبد ربه في أرجوزته بظهور عبد المؤمن ، وأورد البيتين المذكورين هنا وأضاف إليهما خمسة أبيات أخرى (أخبار المهدي ص 26) ، وهى أبيات ينم ضعف نسجها وراككة ألفاظها عن الوضع والأختلاق ، كما أنه زعم أن الفقيه الأندلسي المعروف غازي ابن قيس تلميذ مالك بن أنس قد ردد النبوة في أبيات أخرى من بحر الرجز ، وهى أبيات مثل سابقتها لاشك في أنها موضوعة .

(2) هو محمد بن سليمان بن الخطاط الرعيني القرطبي ، توفي سنة 437 وكان شاعراً أديباً واسع الاطلاع على العلوم القديمة والحديثة ، وكان متهماً بفساد الدين والخلق ، وهو من الشعراء المعروفين بالتشيع (انظر في ترجمته : جنوة المقتبس للحميدي ، رقم 60 ؛ الصلة لابن بشكوال ، رقم 1435 ؛ البغية للفضي ، رقم 124 ؛ التكملة لابن الأبار ، رقم 429 ؛ المغرب لابن سعيد 121/1 - 124 ؛ الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول 427 - 453 ؛ وكذلك مقالنا « التشيع في الأندلس » ص 142 - 143) ؛ وعلى أية حال فلنستأثر بن الخطاط هذا أرجوزة فيها إشارة لثل ذلك .

وذكره عبد الملك بن حبيب ⁽¹⁾ فقال :

صاحب المهدي يأتي بعده خيرة الأعراب طرا والعجم
أقبل الملك به من نعته أشيب اللحية ليس بالهرم

وذكره الطُّبْنِي ⁽²⁾ في أرجوزة له .

(1) هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب الإلبيري الفقيه المؤرخ الأديب ، ولد سنة 174 وتوفى 238 ، وقد بقي لنا من كتبه مختصر كتابه الكبير في التاريخ ، ومنه نسخة وحيدة مخطوطة محفوظة في المكتبة البوليدانية بأوكسفورد تحت رقم 127 ، وقد قمنا بدراسة هذا الكتاب وبيان قيمته التاريخية في مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي » (بحث بالإسبانية في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية) - سنة 1957 - ص 189 - 200 ، كما قمنا بنشر النص العربي للفصول الخاصة بفتح الأندلس وأخبارها والتنبؤات عن الحوادث المستقبلية (ص 221 - 243) ، وليس في كل ذلك ذكر للبيتين المسطورين هنا لابن حبيب ، ولكن في الكتاب نصاً قد يمكن تأويله بأنه يشير إلى المهدي بن تومرت ، وقد رأينا من المستحسن أن ننقل هنا هذا النص (ص 240 من المقال المذكور) : « وسمعت عبد الملك بن حبيب يقول : إذا خرجت دولة بنى أمية ووليا رجل من الموالى أو البربر تكون في دولته الصيحة ، وفي دولة أخرى من بنى أمية تكون القرمونية ، ثم تخرب قرطبة حتى لا يسكنها إلا الغربان ، وينتقل الملك إلى إشبيلية ، وتخرج الخلافة من ولد العباس ، ويصير الأمر إلى بني أبي طالب حتى يخرج الدجال ، ويدخل الداخل من قریش من ولد فاطمة ، فتبرأ إليه أهل الأندلس بالأمر ، ففي زمان هذا الفاطمي تفتح القسطنطينية ، وعلى يدي الفاطمي يقتل النصارى بقرطبة وكورها ، فلا يبقى نصراني ، ويقع السبي في ذرايعهم حين توجد الخادم بمهماز والأمرد بسوط . وأخبرني ابن أبي شمر أنه سمع حسانا يحدث بهذا » .
أنا بينا في هذا المقال (ص 193 - 194) أن كل هذه الفصول زيادات أقحمت في الكتاب من بعد ، وربما كان بعض مؤرخي البلاط الموحي هم الذين أقحموها في النص تأييداً لرأيهم في ظهور المهدي ، ومهما يكن من أمر فإننا لم نجد في الكتاب ولا زياداته أي إشارة إلى عبد المؤمن .

(2) بيت بنى الطُّبْنِي من الأسر المشهورة في الأندلس ، وأصلهم من طينة عاصمة الزاب بأفريقية ، وأشهر من عرف منهم زيادة الله بن علي بن حسين الذي توفي سنة 415 ، وكان من جلساء المنصور بن أبي عامر ، وقد اختص ابن سعيد بالذكر بعض أفراد هذه العائلة (المغرب 92/2 والمراجع الأخرى المذكورة في حواشي هذا الموضوع) ، ولنا ندرى من هو الطُّبْنِي المقصود هنا ، ولعله هو نفسه الذي ألف كتابه في أخبار إفريقية والقروان ، وهو كتاب أشار إليه عبد الواحد المراكشي (المعجب ص 441) .

وذكره حبيب بن هبيرة⁽¹⁾ ؛ إلى غير ذلك من ذكره رضي الله تعالى عنه في أراجيز قديمة غير منسوخة لصفاته وأفعاله وفتوحاته .

وبعضهم يأثر ذكره رضي الله تعالى عنه عن دنياي عليه السلام وعن سطيح⁽²⁾ . وبالجملة قد كان قبل وجوده السعيد منتظرا زمانه ، ومتشوقا كيانه ، إلى أن حقق الله تعالى منه ما كان يذكر ، وأبرز للوجود ما كان ينتظر فجاءت للأمة سعادتها ، ولانت نحو الحق مقادتها ، والحمد لله رب العالمين .

ومنها مما يلحق بذكره رضي الله تعالى [عنه] قبل وجوده وجود⁽³⁾ اسمه الأعز منقوشا * في لوح رخام .

قال أبو القاسم المؤمن :

دخلت⁽⁴⁾ في أرض القدس رباطا يعمره رهبان الروم مفروشا بالرخام المجزع ، وفيه رخامة بيضاء قد نقش في سطحها الظاهر منها أحد عشر سطرا على كل سطر منها اسمان إلا السطر الأوسط فعليه اسم واحد .

قال :

وعلى السطر الأوسط السادس⁽⁵⁾ اسم الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه

(1) لم نهند إلى شخصية حبيب بن هبيرة هذا .

(2) سطيح بن ربيعة هو الكاهن الجاهلي المشهور (انظر عنه المقال الذي كتبه عنه ليفي دلافيدا في دائرة المعارف الإسلامية 189/4 - 190) ، ويبدو أن هناك أسطورة مغربية قديمة كانت تدور حول كونه مدفونا بأرض مدينة سطيف ، فقد ذكر البيهقي في أخبار المهدي (ص 114) أن عبد المؤمن بن علي حينما مر بسطيف في طريقه لفتح بجاية دفع جواده ومعه أصحابه الموحدون حتى وصل إلى قبر سطيح وحك عليه جواده ، ثم قال لأصحابه : أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر ؟ قالوا له : أنت العارف بذلك . فقال لهم الخليفة : « أزيلوني عن هذا القبر لئلا تدوسني خيل عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي ! » ؛ وربما كان المؤلف يشير إلى نفس هذه القصة .

(3) في الأصل : ووجود .

(4) في الأصل : دخلت .

(5) في الأصل : السابع ، والصواب ما أثبتنا .

وحده ؛ وعلى السطر السابع اسم الخليفة بعد الإمام المهدي رضي الله تعالى عنهما الأخذ عنه في حياته المسمى عبد المؤمن بن علي القيسي . واسم شيت عليه السلام . قال :

وعرضت ذلك على الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه ، فأمرني بحفظه وأن⁽¹⁾ أكتب ذلك حتى يحين الوقت الذي يكون فيه ظهوره رضي الله تعالى عنه . ومن كراماته رضي الله تعالى عنه إنجاز⁽²⁾ الوعود النبوية للطائفة المهدية بفتح الأرض ، وتدويع الطول منها والعرض ، فما أم بلدا إلا فتحه ولا سعي سعيها إلا أحمدته واستنجزه⁽³⁾ ، تنجزا لصادق الوعود ، وكرامة بمصاحبة السعود ، حتى إنه رضي الله تعالى عنه يشير إلى ذلك مهما كتب كتابا بفتح من فتوحه ، ويفصح بأنه كرامة من كرامات الله تعالى للدعوة المهدية بفصيح⁽⁴⁾ اللفظ وصرحه⁽⁵⁾ .

ومن كراماته رضي الله تعالى عن نضوب وادي سلا الذي هو بحر ترقأ فيه السفن الكبار ، فنضب لجوازه رضي الله تعالى عنه بعسكره ، حتى لم يحتج فيه إلى قنطرة ولا قارب ، كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى ، وذلك خرق عادة⁽⁶⁾ .

(1) في الأصل : وأنا .

(2) في الأصل : إنجاز .

(3) في الأصل : واستنجزه .

(4) انظر أمثلة لذلك في الرسائل التي كتب بها عبد المؤمن بن علي (مجموع رسائل موحدة ص 13 ، 80 - 81 ، 99 ... الخ) .

(5) يبدو أن المؤلف يشير بهذا إلى ما حدث في أثناء توجه عبد المؤمن بن علي إلى فتح بجاية في سنة 546 ، فقد جمعت جيوشه في سلا ، ومنها خرج إلى شريط ثم « الوادي متاع ورغة » ثم إلى مسون ؛ ولا يتص البيهقي في حديثه عن خط سير عبد المؤمن هذا على ما يذكره ابن القطان هنا من جفاف النهر حتى عبر عبد المؤمن وعسكره ، ولكنه يوحى بذلك إذ يقول : « وخرجنا من مسون ، ولم يعلم أحد أي طريق سلكنا ، وسلك بنا الخليفة على طريق لم تسلك » (انظر أخبار المهدي ص 113 ؛ وانظر عن هذه الحملة روض القرطاس 192 - 193 ؛ وأبوئي : تاريخ 160/1 - 167) .

ومنها ثمان دراهم رضي الله تعالى عنه ، كما حكى بعض الموحدين من كومية قال :

كان سيدنا الخليفة رضي الله تعالى عنه أيام طلبه قد سافر من تلمسان إلى فاس في طلب العلم ولقاء المشايخ بها ، فصحب في طريقه تاجرا مليا ⁽¹⁾ من أهل الإسكندرية ، فرافقه إلى فاس ، فطلب المكربى من التاجر كراء دوابه ، فأعوزته منه خمسة عشر درهما ، فاستسلفها التاجر من سيدنا الخليفة رضي الله تعالى عنه : ثم إن التاجر طلبه بفاس ليقضيه إياها . فلم يجده ، فكتب اسمه في زمامه ⁽²⁾ ، ثم رحل إلى الإسكندرية ؛ ثم توغل في المشرق ، وجال ⁽³⁾ نحو ثلاثين سنة ؛ وكان جعل تلك الخمسة عشر درهما رأس مال على حدة ⁽⁴⁾ ، فوضع الله تعالى فيها البركة ونمت ثمان عظيمًا إلى أن صارت ألف دينار ؛ ثم رجع التاجر إلى بجاية بعد غيبته تلك السنين الطويلة ، * فوجد أبا محمد عبد الله بن سليمان صاحب إمارة البحر ⁽⁵⁾ ، فثقف ماله حتى يعلم حاله ، فاستعجل التاجر الوصول إلى الحضرة

(1) أي غنيا .

(2) في الأصل : زمانة .

(3) في الأصل : وبحال .

(4) في الأصل : جلة .

(5) أبو محمد عبد الله بن سليمان التينملي المسكالي من أهل خمسين المستدركين بعد التميز ، وكان هو وأخوه يوسف من كبار قواد عبد المؤمن وخيرة رجال دولته ، وقد ولى عبد المؤمن عبد الله هذا على سبته بعد إخضاع الثورة التي قام بها القاضي عياض سنة 543 ، واضطلع بأمر الفرقة التي سارت إلى قبيلة غمارة وقضت على ثوار تيطاوين (تطوان) ، ويبدو أن عبد المؤمن وكل إليه قيادة أسطوله البحري في سنة 546 ، وكان عبد الله ابن سليمان هو الذي تولى إخماد ثورة يصلاح بن المعز ، كما كان له فضل القضاء على ابن قسي الثائر في جبل شلير وأركش ووادي آش بالأندلس (انظر أخبار المهدي ص 35 ، 108 ، 111 ، 115 ، 125 ؛ والمعجب ص 262 ، 281 ؛ وابن عذاري : البيان المغرب (القسم الموحد) ص 54 - 55 ؛ ومجموع الرسائل الموحدة ص 11 وهي رسالة كتب بها عبد المؤمن إلى طلبة سبته ويشير فيها إلى قيادة عبد الله للأساطيل الموحدة ، وقد جاء في نفس هذه الرسالة (ص 13) أمر من الخليفة بتثقيف التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة ، مما يؤكد ما يذكره المؤلف هنا من كون عبد الله بن سليمان هو المكلف بذلك .

العلية ، وقصد لقاء أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه فلقيه في طريق البحيرة ، فسلم عليه ، فقال له : من الرجل ؟ فذكر مسألته وتعرف له ، وأحضر زمامه والاسم مكتوبا على الخمسة عشر درهما وأنها قد نمت حتى بلغت ألف دينار ، فجزاه على أمانته خيرا وكتب له ظهيرا بالأمان في أهله وماله ونفسه ، وأمر بصرف كل ما ثقف له عليه .

أمره رضي الله تعالى عنه بالمعروف ونهيه عن المنكر وعدله ، ونهجه مناهج الحق وفضله :

بذلك قطع أيامه ، ورفع أعلامه ، وأحيا الحق وأعلى مراسمه ، وأقام أسواق العدل ومواسمه ، ⁽¹⁾ ونخضد ⁽²⁾ الباطل وقطعه ، وقمع شرذمته وشيعه ، حتى علا منار الهدى وارتفع ، وبهر نوره وسطع ، وانقشعت حناديس الظلم وغياهبه ⁽³⁾ ، واتسعت مقاصد الفضل ومذاهبه ، فكل حركاته وسكناته أمر بمعروف ونهى عن منكر ، وفضل وعدل لا تزال آثاره تحمد وتشكر ، والتعرض للإحصاء ، لآحاد ⁽⁴⁾ ذلك العلاء ، ليس بممكن ، فلا ينزف البحر بالدلاء .

لكن له رسالة جامعة لأنواع من الأوامر ، الباقية فخرا لمن تفاخر . * خلدت من مآثره ⁽⁵⁾ السنية ، وأوامره السنية ، ووصاياه الحكمية ، وآدابه العلمية ، ما يقر معه بفضله كل سامع لها وآثر ، ويعلم أن فضله وعدله ⁽⁶⁾ وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر ابن عطية ، فرأيت تدوينها هنا في جملة ما أثبتته أنموذج ⁽⁷⁾ معاليه ،

(1) في الأصل : ومن اسمه .

(2) في الأصل : وحضره .

(3) في الأصل : وعوايبة .

(4) في الأصل : آحاد .

(5) في الأصل : مآثر .

(6) يبدو أنه سقطت هنا عبارة تم بها السجعة .

(7) في الأصل : المودج .

التي هي إحدى فرائد (1) هذا الكتاب وآليه .

وهي بعد البسملة والصلاة (2)

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى واستعملهم بما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد :

فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذي بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم (3) به الرّوح والنعيم ، ويريمهم حقيقها المختوم .

وكتابتنا هذا - كتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه - ، من الحضرة العلية بتينمل - حرسها الله تعالى - في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة

(1) في الأصل : فوائد .

(2) هناك رسائل من هذا القبيل وصلت إلينا في بعض المراجع الأخرى مثل الرسالة التي وجهها عبد المؤمن إلى طلبة سبتة (مجموع رسائل موحدية ص 1 - 3) ، ورسالته إلى جماعة المشيخة بقرطبة (نفس المرجع ص 13 - 17) ، وإلى طلبة سبتة (ص 61 - 67) ، ورسالة الفصول إلى أهل بجاية (ص 126 - 138) ، وأخبار المهدي ص 13 - 17 و 134 - 145) ؛ وجميع هذه الرسائل - مثل هذه التي يوردها ابن القطان بجملة هنا - مما كتبه عن الخليفة كاتبه ووزيره أبو جعفر ابن عطية .

(3) في الأصل : ينيلهم .

ثلاث وأربعين وخمسمائة (1) : وقد وصلناها - والحمد لله - وجناح الرحمة مخفوض (2) ، وطرف المكاره « مغفوض (3) ، وفيض العدل والبذل (4) منتشر مستفيض ، وشأن الظلم - بإذن الله تعالى - مكفوف مقبوض ، والحق أبلغ لا كناية ولا تعريض (5) .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي رضي الله

(1) لعبد المؤمن كتاب وجهه إلى طلبة صنهاجة تأسفرت بتاريخ 27 من ربيع الأول سنة 543 ، أي بعد تاريخ الرسالة المذكورة هنا بعشرة أيام (انظر مجموع الرسائل الموحدية ص 5 - 6) ، وقد جاء في تلك الرسالة الموجهة من مراكش أنها كتبت بعد صدور الخليفة من الحضرة بتينمل حيث كان عبد المؤمن يؤدي واجب الزيارة لقبر المهدي محمد بن تومرت ، وهذا يتفق مع ما جاء في تاريخ الرسالة التي يوردها ابن القطان هنا وتحديد مكان إرسالها ، إذ أن هذه الرسالة كما يتبين إنما كتبت في أثناء زيارة عبد المؤمن لتينمل وبمناسبتها ، وتنوه هنا بما ذكره عبد المؤمن في رسالته إلى طلبة صنهاجة تأسفرت حيث يقول : « وتصلكم طي كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا بملها كل جهة من جهات الموحدين - وفقهم الله - فيما قرب وبعد ، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله ويعضد ، ورأينا إنفاذاً إليكم لتألوا من بركاتها ما تجدون أثره قريباً » (انظر ص 6) ، ونكاد نقطع بأن النسخة التي أرسلها عبد المؤمن طي كتابه المذكور إنما هي نفس تلك الرسالة التي أوردتها ابن القطان هنا بنصها . وقد كان لهذه الرسالة شهرة عظيمة وانتشار واسع وأصبحت مثلاً يقتدى بعد ذلك لدى سلاطين الموحدين ، نرى ذلك فيما كتبه عنها ابن صاحب الصلاة بمناسبة إيراد نص رسالة مماثلة كتبها أبو الحسن ابن عياش عن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في الثالث من شهر رمضان سنة 561 (انظر نص هذه الرسالة في كتاب « المن بالإمامة » ص 302 - 307 ، إذ يقول ابن صاحب الصلاة معلقاً عليها : « وصل الأمير الأجل الأعدل أبو يعقوب رضي الله عنه بأمره الكريم في هذه الرسالة العلية بالأمر والعدل الأمر الذي بدأه أولاً أبوه الخليفة رضي أمير المؤمنين رضي الله عنهم في رسالته المشهورة بالعدل والنهي عن المنكر المؤرخة بالسادس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة التي كتبها في الحضرة العلية تينمل حين زيارته قبر المهدي رضي الله عنه إلى جميع الطلبة والأشباخ والعمال من الموحدين ببلاد العدو والاندلس ، فافتقني رضي الله عنه في ذلك أثره » (انظر نفس المرجع ص 307) .

(2) في الأصل : منفوض .

(3) في الأصل : معفوض .

(4) في الأصل : والبذل .

(5) في الأصل : تعويض .

تعالى عنه لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر في بناء مسجده المكرم تمتعا ببركاته ، ورجاء في تضاعف الأجر بكل لبنة من لبناته ⁽¹⁾ ، وحرصا على أن يتوافر به حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو في الملأ الأعلى ذكره ورسمه ، ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت التي أمر الله عز وجل أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولتنعم الجوارح بمشاهدة ⁽²⁾ هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم المعظمة ، وتزود بالتطوف على معاهدة ما عهدته العوارف المتممة ، كل ذلك غرضا في ذات الله تعالى نفرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه ⁽³⁾ .

وقد تم - بحمد الله تعالى - هذا الوطر ⁽⁴⁾ ، واقتضي الإياب إلى النظر في المصالح والرأى الجميل النظر ، وتفجرت - بحمد الله تعالى - منابع الخير وفاضت ، وعادت روابض الأمر إلى أشرف حالاته وآضت ، وانبعثت موارد البركات بعد ما غارت في غير هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التي عمت ملابسها ، * ووعت ⁽⁵⁾ الأفئدة نفائسها ، ونخاب عن رحماها خاسر الكلمة وبائسها .

وإن الله تعالى قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقي ربه مُبرِّئاً من اتباع الهوى سليماً ، والشقي من أتى مليماً ، باكتساب الكبائر ملوماً ، * ومن يكسب إثماً فلنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً ⁽⁶⁾ ، والله سبحانه يهب الرحمة

للمسترحمين ، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأمين ، وفي الحظ على ذلك يقول وهو أصدق القائلين : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ⁽¹⁾ » ، وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم العناء ، قال النبي ﷺ : إنما يرحم الله من عباده الرحماء ⁽²⁾ .

وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتقي الله تعالى ولا يخشاه ، ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاها ، ولا يؤمن يوم الحساب فيما أذاعه ⁽³⁾ من المنكر وأفشاها ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار . وينتثرون بالقتل بأعراض الناس أقبح الانتشار ، يستحلون ⁽⁴⁾ حرمت المسلمين من غير حلها ⁽⁵⁾ ، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياء في غير محلها ، ويتدعون من وجوه المظالم * ما تضعف شواهد الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثار ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ويتسببون إلى قتل المسلمين فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبيسات ينشئون ، ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها ، وينظرون إلى احتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلماً ويحسبونها ، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ، ويعيشون ⁽⁶⁾ فيهم بكل غاصبة للقلوب منتزعة ، والنبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً جاء يوم القيامة وله

(1) سورة الشعراء ، آية رقم 215 .

(2) ورد هذا الحديث الشريف في صحيح البخاري (كتاب الجنائز) 79/2 ؛ وفي سنن أبي داود (باب البكاء على الميت) 58/2 ؛ وفي سنن ابن ماجه (باب ما جاء في البكاء على الميت) 481/1 ؛ وفي صحيح مسلم 39/3 ؛ وفي سنن النسائي 22/4 .

(3) في الأصل : اداعه .

(4) في الأصل : يستحبون .

(5) في الأصل : حلها .

(6) في الأصل : ويعيشون .

(1) في الأصل : لبانه .

(2) في الأصل : بمشاهدة .

(3) في الأصل : وتستنهضه .

(4) في الأصل : الوطن .

(5) في الأصل : ونعت .

(6) سورة النساء ، آية رقم 111 .

صراخ عند العرش يقول : يارب ، سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة ؟ ⁽¹⁾ ، ولا يلتفتون إلى عاقبة ولا ينظرون ، ولا يُبرؤون بأذنانهم ما يفعل الله تعالى بأمثالهم ولا يحذرون ، « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » ⁽²⁾ ، هيهات ! هيهات ! إنهم ساء ما كانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدهم هذا ⁽³⁾ ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سدا ، ويستأصلهم ⁽⁴⁾ بصواعق الانتقام فقد جاعوا شيئاً إذا .

[58 ب]

أما « علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم في مهاوي بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم ؟ أما علموا أن أمر المهدي رضي الله تعالى عنه تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ؟ ألم يقل رسول الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ ⁽⁵⁾ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » ⁽⁶⁾ ؟ لقد آمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم إذهاباً لنور الحق من نفوسهم

(1) أورد هذا الحديث الإمام ابن حنبل في مسنده مخرجا إياه عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضه) . انظر عبد الرؤوف المناوي : فيض القدير في شرح الجامع الصغير 192/6 - 193 .

(2) سورة البقرة ، آية رقم 9 ؛ وقد جاء في الاصل : « ... وما يخادعون إلا أنفسهم » .

(3) في الاصل : هدى .

(4) ويتأصلهم .

(5) في الاصل : تنكفى ، ولعلها كما أثبتنا .

(6) جاء في صحيح البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) : « دمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (97/9) ، والذي ذكره الإمام البخاري هو أن ذلك لم يكن حديثاً نبوياً شريفاً ، وإنما كان مكتوباً في صحيفة قرأها علي بن أبي طالب (رضه) في إحدى خطبه ورواه النسائي مختلفاً بعض الشيء في ألفاظه ، إذ قال إن قيس بن عباد والاشتر انطلقا إلى علي (رضه) فسألاه : هل عهد إليك نبي الله (صلعم) شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا ، إلا ما كان في كتابي هذا . فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه « المؤمنون تكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم .. الخ » (سنن النسائي 19/8 - 20) ؛ ورواه ابن ماجة عن طريقين مختلفتين مع بعض الخلاف في ألفاظه (سنن ابن ماجة 150/2 - 151) ؛ ورواه كذلك أبو داود (في السنن 249/2) .

وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حباله مكره ولا تخلص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما يححو رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمنا من الخنى ⁽¹⁾ ! .

ولقد ذكر لنا فيما ذكر من تلك المظالم ، المستغرقة لأنواع المآثم ، الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها ، المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إبلاغاً في الانتهاك بكثرتها وإحاشا ⁽²⁾ ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إغياراً للصدور وإحاشا ⁽³⁾ . وذلك « أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل - أصلحكم الله تعالى - عن هذه الأمثال والأشباه !

وقد علمتم أن عادتنا فيمن يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعي أو يعقه ، حدود معلومة ، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة ، تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثم أو أفاك .

ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات ⁽⁴⁾ وتحجير المراشي ⁽⁵⁾ وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاهما دماراً وهلكاً ،

(1) في الأصل : الغنى .

(2) في الأصل : وإحاشا ، والإحاش هو سجع الجلد (أي خدشه بشدة) أو إحراقه .

(3) في الأصل : وإحاشا .

(4) القبالة هي في الأصل الضريبة التي تدفع لبيت المال ، وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضي به الشرع ، وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أبو بائعو السلع الرئيسية (انظر دوزي : ملحق القواميس العربية 305/2 - 306) .

(5) في الأصل : المراشي ؛ وتحجير المراشي يعني به منع التصرف فيها والحجر على حرية الانتفاع منها ، وهو مأخوذ من الاصطلاح الشرعي « التحجير » بمعنى الحجر وهو منع التصرف (انظر دوزي : ملحق القواميس العربية 250/2) .

وأكثرها في نفس الديانة عيثاً وفتكاً ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ! هل قام هذا الأمر العالي إلا لقطع أسباب الظلم وغلّقه ؟ وتمهيد⁽¹⁾ سبيل الحق وطرقه ؟ وإجراء⁽²⁾ العدل إلى غاية شأوه⁽³⁾ وطلّقه ؟ اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعيذك مما استعاذك منه محمد رسولك . روى عنه عليه السلام أنه قال : « أعوذ بالله من المغرم والمأثم⁽⁴⁾ » تنبيهاً على ما في إغرام الناس من الظلم المظلم . ولئن نقل إلينا - والله الشاهد - أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة ، أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر ، أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر : لنعاقبه بمحو أثره ، عقاباً يبقى * [عظة⁽⁵⁾] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

[59 ب]

وإن من ذلك الرأي الذميم ، والسعي المنقوم ، ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصيحة ، ويستبطنون⁽⁶⁾ المكر في تصرفاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم : عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ! ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد⁽⁷⁾ السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله ، وإنها لذهابية⁽⁸⁾ عاقرة ، قاصمة للظهرة فاقرة ، ويا عجباً لكم - معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين - فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق كيف

(1) في الأصل : وسد ، ولعلها تحريف عما أثبتنا .

(2) في الأصل : أجزاء .

(3) في الأصل : شهوة .

(4) أورده النسائي في جملة ما يتعوذ به في الصلاة (السنن 57/3) .

(5) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل .

(6) في الأصل : ويستبطنون .

(7) في الأصل : ونعتقد .

(8) في الأصل : لذهابية .

تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هنالك رصّد⁽¹⁾ ؟ أم كيف تجري هذه الظلمات وقد قام للحق أود ؟ أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك ؟ والحرمات تنهك ؟ ولا يمتنع ذلك منكم أحد ؟ كلا ، لعاقبين كل من⁽²⁾ جنس ، وليظهروا ما قصد القاصد وما عنى . وإن وراء قولنا « لتتبعنا يبحث⁽³⁾ » عن ذلك ومحصص ، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص !

ولاشك - والله أعلم - في أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعي تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون ما لا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفي بالظلم والعدوان بدلاً من العدل والقول الجميل والإناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن مشاهدة الأمور ومعاينتها ، والتعجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب⁽⁴⁾ قوي في انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهمالها في البواطن واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبعدوا بغلظ⁽⁵⁾ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم ، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا في جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب في الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وتثبتوا⁽⁶⁾ - وفقكم الله - في الأحكام التي لا بد لكم من النظر فيها تثبت البحث عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد في الخصام ، وبالغوا في الإيضاء .

(1) كرر الناسخ هذه الجملة في الأصل .

(2) في الأصل : ما .

(3) في الأصل : يبحث .

(4) في الأصل : ونسب .

(5) في الأصل : بغلظ .

(6) في الأصل : وثبتوا .

ولا تظنوا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي إلى الهجوم عليها والافتحام ، ويخرج
النظر عن الثبوت في القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها « مذهبا وسطا ، واقتصدوا
الاعتدال مقصدا مقسطا ، ولا تجتهدوا في شيء لا تعلمون فيه حكما ، وشاورونا
فيما يخفى عنكم وجهه لرسم لكم فيه رسما ، فليس كل مجتهد مصيبا برأيه ،
ولا كل هاجم على رأي منجح في سعيه ، وبين طرفي الأحوال واسطة جميلة فيها
معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور - كما قال عليه الصلاة والسلام -
أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسيبين لتلك القبائح الساعين
في صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم لنشرد بهم من
خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله في سد تلك
الذريعة ، وصدد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين
للكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن
تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل
من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو معهم وداخل في مضمارهم ، وكل
من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر في أمر الله والختل ، فعرفونا بحليلة (1)
أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجبه الحق
ويقتضيه ، ونمضي في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا
في قتل أحد ممن « ذكرناه كائنا من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى
إعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه ، ونجزي الحق فيه مجراه .

وإنه أعلمنا بأن من يرضى من تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولا
يبالي أحسن الفعل فعله أم قبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء (2) ، ويعبث في

(1) في الأصل : سجلية .

(2) في الأصل : استتار ، والاستبراء هو التلبث على المرأة حتى تمضى وتؤكد عدم حملها .

ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجترأ ، ولا يتحفظ من مواجهة الزنا المحض ،
ومخالفة الواجب مع الفرض ، وإن في ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع
الفرع ، وإفساد الأصل من السنة والفرع ، ما لا يحل (1) سماعه ، ولا يستقر
بالفس مؤمنة استطلاعه . فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئا ممنه أو يبيع ،
حتى يسأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع .
والقدموا للنظر في أسواقهم من ترضون دينه وأمانته ، وتتحققون ثقته وصيانيته .
فمن أبيع له البيع والابتيع أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع ،
ولم يري السنة مجراها ويمثل الأمر المطاع . وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع
من تعلمونه ممن في تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا
من ذلك بحليته . لرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ، ويجري إليه اقتصادكم .

والله الله في البحث على الخمر ! وتقديم النظر في أمرها فهو من أهم
الأمور ، فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكبائر والفجور ، وهي رابطة أهل الجرم ،
وجامعة « أشتات الظلم » ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تبيع الخمر
والخمر جماع الإثم (2) » ، فخذوا في طلبها في المواطن المتهممة بشانها ، واجتهدوا في
إراقها وكسر دنانها ، واعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها فارعه
والحفظه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على
مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل الكالي الرقيب ، ولا يكن منهم
إلا من يفرق بين الحلال والحرام ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه وما لا يجوز ، ومروهم
بالتعهد لمواضع بيع الربِّ واعتصامه وخذوهم بتوقف جدِّهم على ذلك

(1) في الأصل : يحمل .

(2) لم نجد هذا الحديث بلفظه في كتب الصحاح المعروفة ، وأقرب ما ورد إليه هو ما أخرجه ابن
ماجه في السنن (327/2) عن أبي الدرداء (رضى) أنه قال : أوصاني خليلي (صلعم) لا تشرب الخمر
فإنها مفتاح كل شر ، وعن حباب بن الأرت عن النبي (صلعم) أنه قال : إياك والخمر ، فإن خطيئتها
تفرع الخطايا كما أن شجرها تفرع الشجر .

واقتصاره ، فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعوه أصلاً وفرعاً وأراقوه .
« الحلال بين والحرام بين ⁽¹⁾ » ، ولقضايا الشرع نظام ؛ قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فالجرة منه حرام ⁽²⁾ » .

وإن ممن ⁽³⁾ يسعى في نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الإصدار ⁽⁴⁾ والإيراد ، هؤلاء الراقصين ⁽⁵⁾ الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ، ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها ، وسوء رأيهم ⁽⁶⁾ بذلك * في المخازن وغيرها ؛ وإن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً ، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم ⁽⁷⁾ ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى إنهم لا يرضون في ضيافاتهم إلا بأسمن الجزر ، وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر ؛ فسارعوا - وفقكم الله تعالى - إلى حسم ⁽⁸⁾ هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ⁽⁹⁾ ، وتخيروا لرسائلكم أرسالا ، وانتقوا من أهل

(1) أورد هذا الحديث البخاري (الصحيح 20/1) ؛ ومسلم (50/5) ؛ وابن ماجه (476/2 - 477) ؛ وأبو داود (82/2 - 83) ؛ والنسائي (242/7 - 243) .

(2) الذي جاء في كتب الصحاح « ما أسكر كثيره فقليله حرام » (انظر فيض القدير للمناوي 420/5 ؛ وسنن ابن ماجه 332/2 ؛ وسنن النسائي 300/8 - 301 ؛ وسنن أبي داود 130/2) ؛ وقد جاء في فيض القدير (نفس الموضع المشار إليه قبل) وفي سنن أبي داود كذلك حديث آخر أشبه بهذا ، وهو « ما أسكر منه الفرق فعمل الكف منه حرام » (والفرق بفتحين مكيال يسع ستة عشر رطلا) .

(3) في الأصل : من .

(4) في الأصل : الإصرار .

(5) الراقص مثل الرقاص التي سبق التعليق عليها ، والمقصود هو حامل البريد . ص 143

(6) في الأصل : وسواء وأتهم .

(7) في الأصل : المجترم .

(8) في الأصل : تحسيم ، ووضع الناسخ عليها علامة شك ، فلعلها كما أثبتنا .

(9) في الأصل : وفصلها .

المقدرة على ذلك والثقة ⁽¹⁾ رجالا ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المعى والانصراف ، ويقطع شأنتهم عن التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، ونستعيز به سبحانه من الحور ⁽²⁾ .

وكذلك ذكر لنا - وفقكم الله تعالى - من التحكم في الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميمة ومنزعهم ، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح مكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعيشون ⁽³⁾ فيها ويتحكمون ، ويجرؤون في التعدى عليها ملء شأوهم « وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، ⁽⁴⁾ فإني أمواله المخزونة في أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلاً ولا كثيراً إلا بعد استئذاننا ⁽⁵⁾ وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة ، أمراً دائماً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعلقة .

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به جميع الطلبة والموحدين وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة ⁽⁵⁾ منيرة ، فأمرنا بجميع فصول

(1) في الأصل : وثاقة .

(2) في الأصل : الجور ؛ والحور هو النقصان ، وفي هذه العبارة إشارة إلى الحديث النبوي الشريف « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أي من النقصان بعد الزيادة أو من فساد أمورنا بعد صلاحها .

(3) في الأصل : فيعيشون .

(4) في الأصل : استئذاننا .

(5) في الأصل : مشرقة .

كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف فقد تبين عناده ، وساء في العاجل والآجل مآله (1) ومعاده ، ومن لم يمثله بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمناه في كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه (2) ، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصده الانتقام به عن سوء منحاه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحابا مؤبدا ، واتخذوه في كافة أحوالكم مستندا ومعتمدا ، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير - أيده الله تعالى - على بسط * العدل ، وإفاضته على الكل ، ورفع لعبء ثقل (3) وكَل : أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة على ذلك والاستدامة . ويتجافوا عن مواقع الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا (4) للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا (5) في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفا واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا - وفقكم الله تعالى - أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدما ، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذا ملتزما ، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وها هي قد رفعت الإشكال رفعا بيّنا ، وأرتكم فرط اهتبالنا حقا مُبَيَّنًا ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمصارعة ، وصلوا ابتداء شأنها بالمواصلة له والمتابعة ، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تلكم البلاد من الطلبة والعمال ، وكافة المقدمين

(1) في الأصل : قاله .

(2) أي أسرعه .

(3) في الأصل : ورفع العبد المثقل وكل ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، والكل (بفتح الكاف) هو الثقل من كل ما يتكلف ، ويطلق على العيال .

(4) في الأصل : وينقاد .

(5) في الأصل : ويكون .

للأعمال ، ولا تقدموا أمرا من الأمور على إنفاذ جميع ما تضمنه ، والاعتمال بكل ما شرحه وبهيه ، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكون منكم في تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، وأقرأوه على الكافة أعالى المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والخواضر ، وأسمعوا به إفصاحا وإعلانا ، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدا ، وأحسنوا إيفصال أغراضه (1) إليهم ، فإن الله تعالى يجزي الاحسان إحسانا .

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير * وبلغتم حجتة بواجب التبليغ والتقريب ، فاكتبوا منه نسخا إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه ، من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتثال مضمينه على ما يحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لمخالفته فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجنايهم شان لا يقاربه (2) من فضل الله تعالى شان ، وقد علمتم ذلك منا وخبرتموه ، وجربتموه علي مر الزمان وصبرتموه (3) ، فلتتلقوا كل من استزعكم الله أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا (4) عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا - رعاكم الله - أن من شملته كلمة التوحيد ، في العهد القريب أو البعيد ، في مضمار واحد من العدل محمولون ، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون ، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعا ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكا مشروعا ، وقد ألقت الكلمة بينهم ، فبعضهم

(1) في الأصل : إعراضه .

(2) في الأصل : يفارقه .

(3) كذا في الأصل ، وربما كانت « وسير تموه » .

(4) في الأصل : ولتنشروا .

لبعض في الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ⁽¹⁾ ، فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل قصداً « إلى مرضاة الله تعالى وإتيانا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، وأحسنوا بهم - رعاكم الله - ظنا ، وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسنى ، واستألفوا الناس بالتي هي أحسن ، وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية ما يتمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجا يبدو به مضمركم الجميل ويتين ، وسيروا بصالح عملكم وبشروا ، وبسروا - كما قال عليه الصلاة والسلام - ولا تعسروا ⁽²⁾ ، وسكنوا ولا تنفروا .

واعلموا أن السعي في هذا الغرض الواجب ، والاعتمال في رفع ذلك المانع الحاجب ، لا يتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متألفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع في الصلاح آراءكم ، ويضمن النجاح التام لكم ولن وراءكم ، فعليكم بالمظافرة ، والمناصرة والمؤازرة ، فهي سواعد السعد ، قواعد الود ، وشيم الكرام الحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضى ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحنكم فاقبلوها نصيحة قصدت في ذات الله تعالى قصدها ، وذكرناكم بهذه التذكرة فاستقبلوها رشدًا ، ونهناكم تنبيهًا * بالغًا ، وللحال ما بعدها ، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن امثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة على قالب سمعته ، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته .

وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تنبيهكم وإذكاركم ، وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم ، ما ألفيناه بحضرة مراکش - حرسها الله - من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، وما يجرى مجراها في وجوب الإزالة والإحالة ، فإننا كنا لا نبحت عن ذلك ، لتخلينا أنه

(1) سورة الحجرات ، آية رقم 10 .

(2) تمام الحديث « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » (انظر فيض القدير للمناوي 361/6) .

لا يجرؤ أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي أظهره الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث عما يجب ، وزال ⁽¹⁾ عن وجه المشاهدة ما كان يحتجب ، اطلعنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيرا ، وأزلنا بعون الله تعالى ما كان محذورا بالشرع محظورا ، حتى تظهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلي الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مُقْتَبَسِهِ ، وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال والقوام ، يحكم ما أحكمه الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه في القضايا والأحكام ، وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو في حكم « بُعِدَ عنا واغتراب ؟ !

فانظروا هذا - وفقكم الله تعالى - نظر أولي الأبواب . ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

(1) في الأصل : وأزال .